العطاء التعليمى المصرى ٠٠٠عربيا

مقدمـــــــة :

الحـــديث عـــن عطاء مصر فى التعليم للبلدان العربية لا ينطلق من باب " المـــن " و " التباهـــى " ، ومحاولـــة إثبات الفضل ، وإنما هو محاولة غاية فى الإيجـــاز إلـــى الدرجة التى نخشى معها أن تصل إلى حد الإخلال ، سعيا نحو تقـــديم ما يمكن تسميته " بكشف حساب " عما قام به الأخ الأكبر من " واجب " نحو إخوته ، ولأن الواجب يقابله حق ، فهذا يعنى أننا من زاوية أخرى نحاول الكشف عما ناله الإخوة من " حق " التعلم والتعليم من الأخ الأكبر ٠

نقول هذا دون أن نستند إلى مجرد فيض من المشاعر العاطفية والانفعالات الموقـــوتة ، ولا مـــن بـــاب الدعاية والمجاملة ، أو حتى مجرد استجابة لطلب بالحديث فى الموضوع ، وإنما نقوله عن " إيمان وعقيدة " ، إيمان يشكل هوية الكاتب ، وعقيدة ينطلق ويفكر فى إطارها ، دون أن يجد تعارضا أبدا بين هذا وبـــين دائـــرتين أخريين يستند إليهما فى استكمال مثلث الهوية ، وهما الدائرة المصرية ، والدائرة الإسلامية ٠

وفضـــلا عـــن ذلـــك ، فسوف يتضمن تناولنا للموضوع أيضا ما يؤكد أن القضية تستند إلى براهين عقلية وأدلة منطقية ، وإلى تاريخ ٠

والأدلة والبراهين العقلية كلها تقوم على ما يمكن تشبيهه بالنظرية الخاصة بالضـــغط الجوى ، فنحن نعلم منها أنه عندما تكون هناك منطقة تعيش ضغطا جـــويا منخفضا ، وأخرى ضغطا مرتفعا ، فلابد أن تهب الرياح من الثانية إلى الأولى ٠ كذلك بالنسبة للثقافة والتعليم ، فعندما تكون الفرصة قد أتيحت لمجتمع أن يعيش ثقافة وتعليما أكثر ازدهارا وتقدما ، فلابد أن تلجأ المجتمعات التى لم تحظ بهذا إلى الاستفادة من سابقتها ٠

ولســنا فى حاجة إلى التنبيه إلى أن عددا من الدول العربية لم تظهر لها كــيانات سياسية حديثة إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وأنها كانت محرومة كلية من فرص الانتشار الثقافى والتعليمى ٠

كما أننا لسنا فى حاجة إلى التنبيه إلى أن مصر ، على الرغم من وقوعها مثل الكثرة الغالبة من البلدان العربية تحت براثن الاستعمار الغربى ، و من قبل ، انضــوائها فــى جب التخلف والاستبداد العثمانى ، إلا أن حركة التعليم فيها والــثقافة ، كانــتا ، قياسا إلى ما كان فى معظم الأقطار العربية ، فى وضع لا بأس به على أية حال ٠

أما من الناحية التاريخية ، فهذا ما نحاول أن نقوم فيه بإطلالة سريعة ٠٠

المنطلق العروبى :

فيؤكد علماء الجغرافيا أن شعوب المنطقة العربية – قبل العرب والإسلام – هم أساس وأصلا أقارب انفصلوا جغرافيا ، ابتداء من العراق إلى الشام إلى الجزيــرة العــربية ، ومن مصر إلى المغرب أو السودان ٠ والتوطن المحلى والمؤثرات الموضعية والتزاوج الداخلى الذى حدث بعد ذلك ، لا يمكن أن ينتج أكثــر مــن ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الأصل الدموى وتجانس العــرق فى كثير ، وإن تطورت اللغات والألسن ما بين سامى وحامى ، ويظل العالم العربى أو بيت العرب الجغرافى الكبير هو " دوار العرب " بمعنى الأسرة الموسعة التى تضم عدة أسر نووية أو خلوية (جمال حمدان : شخصية مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ ، ج٤ ، ص ٦٣٦) ٠

ومــن هنا فقد كانت العلاقات بين مصر وسائر البلدان العربية منذ قيامها الأول علاقــات متكاملة ومتنوعة أشد التكامل ، وأوسع التنوع ، فهى علاقات بالعــرق والسلالة ، امتزجت فيها الدماء والعروق وألوان الثقافة والفكر واللغن والعقــيدة ، حتــى اتخذت العروبة طابعها الحضارى العام ، وصارت محصلة

لفكر استوعب عقائد التوحيد منذ أن كانت إرهاصاته الأولى فى الجزيرة العربية وفـــى مصر ، وتتابعت عليها الأديان المتلاحقة منذ أيام إبراهيم وأبنائه الأوائل حتى عصر الإسلام وعقيدته التى مثلت التوحيد الحنيف ٠ وقد اتسع نطاق هذه العـــروبة حتـــى شـــمل الأرض كلها من حافات جبال زاجروس ومياه الخليج العربى حتى أقاصى المغرب وشواطئ المحيط الأطلنطى ، فصارت كلها أرضا للعـــروبة مترابطة فيما بينها ، ومتصلة فى امتداد لا تكاد تتخلله أية جزر غير عـــربية أو غيـــر معربة ، لا سيما بعد أن نطقت أرض العروبة كلها وشعوبها بلغة واحدة هى العربية (سليمان حزين : أرض العروبة ، رؤية حضارية فى المكان والزمان ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٣ ، ص ١٨٨) ٠

ومـــن الحقائق التاريخية المؤكدة أن إسماعيل هو أبو العرب العدنانيين ، وهو فى الوقت نفسه ابن إبراهيم العراقى من هاجر المصرية ٠ ونعرف كذلك أن العرب العدنانيين هم أبناء إسماعيل من زوجة مصرية أيضا (جمال حمدان : مرجع سابق ، ص ٦٣٦) ٠

ونعرف أيضا من حقائق التاريخ أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم تزوج مـــن مارية المصرية ، وهو القائل عن مصر لعرب الجزيرة إن " لكم فيها ذمة ورحمـــا " ، كمـــا أن عمرو بن العاص هو القائل : " أهل مصر أكرم الأعاجم كلهـــا ٠٠٠وأقـــربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة ، ومن هنا تبرز تلك الحقيقة قوية ناصعة أن صلة مصر بالعرب صلة نسب ودم قبل أن تصبح صلة ديانة ولغة ٠

فإذا جئنا إلى مجال التعليم خاصة ، نجد لغة التعليم فى مصر ، مثلها مثل ســـائر الـــبلدان العـــربية هى اللغة العربية ، واللغة كما نعلم هى مركب عقلى وفكـــرى له دوره الحاسم فى تشكيل طريقة التفكير وتوجيه المفاهيم والمعانى ، ومـــن ثم فإن التشارك فيها يعنى بالتالى تشاركا فى مثل هذه الأمور وما يجرى مجراها ٠

بـــل إن التشـــارك فى العربية كلغة تعليم يقيم جسرا مشتركا بين الأجيال المتـــتابعة وبين الموروث الثقافى منذ قرون طويلة ، ومن المعروف أيضا أن التشـــارك فـــى المـــوروث الثقافى لابد أن يكون له دوره فى تشكيل الشخصية والعقلية .

ومـــن الملفت للنظر أن الشاعر المعروف أحمد عبد المعطى حجازى الذى يكـــتب فى الأهرام فى الوقت الحالى وقت كتابة الدراسة – سلسلة من المقالات تعكـــس تحفظـــه علـــى المنحى العروبى هو نفسه الذى أصدر عن دار الآداب ببيروت كتابا بعنوان (رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر) ، ١٩٧٩ ، وهى تلـــك الفترة التى اشتد فيها اللغط داخل مصر بتأثير الهجوم الكبير الذى شهدته بلـــدان عـــربية كثيـــرة ضد مصر بسبب توقيع القيادة السياسية فى ذلك الوقت لاتفاقـــية كامـــب ديفـــد ، ممـــا دفع عددا من مفكرى مصر إلى الدعوة إلى " المصرية " بعيدا عن العروبة ، وكان على رأس هؤلاء توفيق الحكيم ، وحسين فـــوزى ، وكـــذلك لـــويس عوض الذى اعتبر القومية العربية من " الأساطير السياسية " .

المهم ، أن كتاب حجازى ضم عددا من الكتابات والكلمات لعدد من أبرز علماء ومفكرى وقادة مصر قبل ثورة يوليو ، يؤكدون فيها جميعا على المنطلق العروبى ، فمن ذلك :

- ذكر مكرم عبيد (ص ٢٧٦) أن تاريخ العربية سلسلة متصلة الحلقات ، وإذا علمـــت أن رابطة اللغة والثقافة العربية فى هذه الأقطار (العربية) أوثـــق مـــنها فـــى أى قطر من أقطار الأرض ، وأن التسامح الدينى نشأ وترعرع وما زال موجودا بين أصحاب الأديان كلها فى الجارات الشقيقة ، أيقـــنت أن المقصود بقولى " المصريون عرب " هو هذه الوشائج وتلك الصـــلات التـــى لـــم تفصمها الحدود الجغرافية ، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا ، على الرغم من وسائلها التى تتذرع بها إلى قطع العلاقات

بـــين الأقطـــار العربية والعمل لقتل الوحدة العربية بين أبنائها ، والسعى للتفرقة ، واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها أعظـــم الأركـــان التـــى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى ٠

- وألقى زكى مبارك محاضرة فى نادى المتنبى فى بغداد فى أوائل نوفمبر ١٩٣٨ ، كان مما جاء فيها (ص ٢٩٩) أنه عربى أولا ومصرى ثانيا " ولو شئت لقلت أن أبى من أصل عربى صريح ، وأهل سنتريس يعرفون ذلك ، وأقول إنى مصرى ، وما تسوغنى هذه النسبة ، فالمصريون عرب فى أقوالهم وأفعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم ٠٠٠" ٠
- أما الدكتور محمود عزمى السياسى القديم ورئيس تحرير جريدة السياسة فـــى إحدى فتراتها ، وصاحب الدعوة إلى لبس القبعة تشبها بالغربيين فى فترة أخرى من حياته ، فقد كتب (ص ٣١٤) عن الرابطة العربية مؤكدا " إنها الرابطة الوحيدة التى يجب أن يستند إليها تطورنا المحتوم " ٠
- وكـــتب الأديـــب الشـــهير إبراهيم عبد القادر المازنى مؤكدا على أهمية الرابطة اللغوية العربية قائلا (ص ٣٢٩) : " لتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكـــون ، ولتكن الأصول البعيدة المتغلغلة فى القدم ما شاءت ، فما دام أن أقواما لهم لغة واحدة فهم شعب واحد ، ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر – إلى الآن – على الأقل – إلا بالألفاظ ، هى وحدها أداة التفكير ، فـــلا ســـبيل إلـــيه بـــدونها ٠٠٠ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ، ويخـــتلفون عـــن أبناء كل لغة أخرى ٠٠٠ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكـــون إلا عربا كالعراقيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والحجازيين ، واليمانيين ٠٠٠؟ " ٠

ولم يقف الأمر عند حدود هذه الآراء والأفكار ، وإنما امتد إلى حقائق واقع ، فقد صارت بعض البلاد العربية بفعل وسائل المواصلات المستحدثة بعد الحرب

العالمية الأولى أقرب إلى عاصمة مصر من بعض بلاد الصعيد ، فتكشف الاتصال والاحتكاك في المؤتمرات التى كثرت أو شهور الاصطياف أو الزيارات المنظمة أو الرحلات الرياضية والكشفية عن حقائق قومية بديهية كانت غائبة عن الأذهان أو طمستها الثقافة الحديثة أو حجبتها الإقليمية ، فبعد أن كان المرء يذهب إلى فلسطين وسوريا والعراق ، وهو يظن أنه ذاهب إلى بلاد أجنبية ، إذا به يخرج من تجواله بأن " الجميع عرب فى ميولهم وطريقة تفكيرهم مع المصريين على السواء ، وأن هناك أمة عربية فطت الأيام فيها الأقاعيل فيوقن على الرغم من ذلك أن هذه الأمة العربية تمتد من جبل طارق إلى بلاد الفرس وأن هذه الأمة ثابتة مهما كان فيها من انقسام صناعى ، ولكن هذا الانقسام لا يمكن ولن يمكن أن يكون أبديا ، ويحس أنه بعد ذلك ليس فردا من أمة لا يبلغ مجموعها إلا ثلاثة عشر مليونا ، بل فرد من أمة مجموعها نحو ثمانين مليونا ، كما قال محمد على علوبة السياسى المصرى الشهير فى خطبته المنشورة بالمقطم فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠ (ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٠) .

ووسط مظاهر الحفاوة التى أحيط بها فريق خريجى الجامعة المصرية الرياضى أثناء زيارته لدمشق ، لم يتمالك أحد أعضائه إلا أن ينبرى قائلا : " إننا نشعر من صميم نفوسنا أننا لسنا غرباء : نحن إخوان التقوا بإخوانهم " . وكانت أحداث فلسطين قد بدأت ، أثناء هذه الاتصالات ، فيما تناقلته الصحف من أنبائها تشد إليها الانتباه ، وكان عاملا الدين والقومية ، وهما فى قضية فلسطين بالنسبة للعرب شئ واحد ، من أهم العوامل التى تضافرت لجذب مصر إلى الوعى بشخصيتها العربية (المرجع السابق ، ص ٢٦٠) .

العطاء العلمى فى العصور الإسلامية :

لـــم يكن العرب المسلمون الذين رافقوا عمرو بن العاص فى فتحه لمصر مجـــرد مجموعة من العسكر ، بل كان منهم عدد من القراء (أى قارئى القرآن الكـــريم) والمحدثـــين والمفسرين ، إلى جانب كونهم مجاهدين (أحمد نصيف الجنابـــى : الدراســـات اللغوية والنحوية فى مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع العجرى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٨ ، المقدمة) ٠

وتكاثـــرت الوفود العلمية إلى مصر – بعد ذلك – من جميع أقطار العالم الإســـلامى المعـــروف آنـــذاك ، ونشأت – منذ القرن الأول الهجرى – ثلاث حركات علمية واضحة المعالم متميزة القسمات :

الأولـــى : حركة لغوية ونحوية متمثلة فى نشاط القراء فى ميدانى القراءات والتفسير ٠

والثانية : حركة تتصل برواية الحديث ونقله ٠

والثالثة : فقهية ، كانت نواتها جماعة من الصحابة الممتازين فكريا ٠

وإلـــى جانـــب هذه الأنماط الثلاثة ، وبتأثيرها ، نشأت حركة جديدة كان مظهـــرها الأول نشـــاط جماعة من شبان مصر لدراسة الأنماط الثلاثة خارج مصـــر ، ونشأت بعد ذلك مدارس تتوزع على هذه الأنماط كانت نتيجة لتطوير تلك المناهل الأولى ٠

ولعل جميع القراء فى بلدان العالم الإسلامى ، جميعا ، العربى منها وغير العربـــى ، يعرفون واحدا من أقدم الذين اختطوا طريقا فريدا فى علم القراءات الخاصة بالقرآن وأصبح معلما على امتداد عصور التاريخ الإسلامى ، ألا وهو " عثمان بن سعيد بن عدى المعروف ب " ورش " ، وهو مصرى صميم أصل أجـــداده مـــن الأقباط من موالى آل الزبير بن العوام ، المتوفى عام ١٩٧هـــ (محمد مصطفى : الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ٨٥) ٠

وفى علوم الفقه ، عرفت مصر " الليث بن سعد " وهو يعد مفخرة لمصر إذ كان ميلاده ببلدة قلقشندة سنة ٩٤ هـ ، وإن كان أصله يمتد إلى بلاد فارس ، وأهل هذا العلم يعرفون جيدا منزلته التى تفوق فيها على كثيرين وجعلته مقصدا لطلاب العلم من بلدان عربية مختلفة .

وقد أحصى السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة ..) فى جزئه الأول من كان بمصر من أرباب المعقولات والأطباء والمنجمين ، فعد أول ما عد " بليطان " ، وقال إنه طبيب نصرانى كان بديار مصر ومات سنة ١٨٦هـ ثم عد بعده مباشرة سعيد بن نوفل الطبيب النصرانى الذى كان فى خدمة أحمد بن طولون (المرجع السابق ، ص ١٠١) .

وفى كلام السيوطى برهان على أن العطاء المصرى لم يصدر فقط ، فى ذروة العصور الإسلامية ، عن مسلمين مصريين ، وإنما صدر كذلك من مصريين أقباط .

ولم تكن العلاقة بين مصر والبلدان العربية الأخرى تسير فى اتجاه واحد هو اتجاه العطاء ، فقد فتحت أبوابها لعدد من علماء العرب والمسلمين فى بلدان أخرى لتغدق عليه العطايا المادية التى تسير لهم سبل العطاء العلمى وتشجعهم على بذل المزيد .

ومن هنا فإن الناصر صلاح الدين كان إذا بلغه عن شيخ رواية عالية ، وكان ممن يحضر عنده سمع منه وأسمع أولاده ومماليكه ، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن لم يكن المحدث ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه (المرجع السابق ، ص ٣١٥) .

ومن أمثلة ترغيب العلماء فى الحضور إلى مصر ما فعله العزيز بن صلاح الدين بالحسن بن الخطير النعمانى وما كان من إجرائه عليه ستين دينار أو مائة رطل خبز فى الشهر وخروفا وشمعة كل يوم . وكذلك حديث تاج الدين أبى اليمن واختصاصه بفرخ شاه بعد أن عرف فضله فى مجلس القاضى

الفاضل ، فإنه ألزم صحبته إلى أن مات فاتصل بعده بتقى الدين أخى فرخ شاه فكثرت أمواله .

وقد ظهر فى مصر عدد من المصريين الذين جمعوا الحديث ودونوه أسوة بغيرهم من العلماء ، وأقدم كتاب مصرى وصلنا فى الحديث هو كتاب (الجامع فـــى الحديث) لعالم مصرى يعد من أوائل مدونى الحديث فى العالم الإسلامى وهو عبد الله بن وهب ، وقد عثر على جزء مخطوط من هذا الكتاب فى مدينة إدفـــو مـــنذ مـــا يقرب من خمس وسبعين عاما ، ويعد هذا المخطوط من أقدم المخطـــوطات فى جميع مكتبات ومتاحف العالم ، حيث يرجع تاريخ كتابته إلى القرن الثالث للهجرة ، وعبد الله بن وهب هذا مصرى قرشى بالولاء ولد بمصر عـــام ١٢٥هـــ(محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٣٧).

وابتدع علماء مصر الإسلامية فى التاريخ فنا لم يسبقهم أحد إليه وهو " فن الخطط " ، إذ لما أمر عمرو بن العاص أن تكون مدينة الفسطاط مقسمة حسب القـــبائل العـــربية ، وأن تكـــون لكـــل قبيلة خطتها بالفسطاط أو الجيزة ، جاء المؤرخون فى القرن الثالث للهجرة يؤرخون لهذه الخطط ، وشاع هذا النمط من الـــتأريخ كما رأينا فى خطط المقريزى ، وفى العصر الحديث الخطط التوفيقية لعلى مبارك (المرجع السابق ، ص ٥٩) .

ونـــبغ فـــى العصر الفاطمى فى علوم الطب (على بن رضوان) المولود بالجيزة ، سمع به الخليفة الفاطمى فاستخدمه وجعله رئيسا على سائر المتطببين ، وذاعـــت شـــهرته فى البلاد الخارجية ، فكاتبه أطباء العالم الإسلامى يطلبون رأيـــه فى بعض الأمور الطبية أو لمناظرته فى بعض المسائل ، وانبرى لابن رضوان أحد أطباء بغداد وهو ابن بطلان لمناظرته والرد على ما جاء فى كتبه ، وكـــذلك فعل ابن رضوان فى كتب ابن بطلان ، حتى إن ابن بطلان رأى أن

يفد على مصر للاجتماع بمنافسه ابن رضوان ، فأقام بها ثلاث سنوات اشتدت فيها مناظراته العلمية مع منافسه على مشهد ومسمع من أطباء مصر ، فكانت هذه المناظرات ثروة علمية أفادت دراسة الطب فى هذا العصر ، فقد تعرضت المناظرات لآراء الأطباء القدماء والمحدثين أمثال حنين بن إسحق وعلى بن الطيب أستاذ ابن بطلان وابن زكريا الرازى وغيرهم ، بل وضع ابن رضوان كتبا فى الرد على الأطباء القدماء كان لها أثرها فى تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى الآراء الجديدة التى نادى بها ابن رضوان ومقارنتها بآراء خصومه من القدماء أو المعاصرين (المرجع السابق ، ص ٦٩) .

وأخذ تلاميذه أمثال افرائيم بن الزقان وابن الحسن بن إسحق فى نشر آراء أستاذهم فازدهرت الدراسات الطبية على أيديهم بحيث استطاعت مصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية فى العلوم الطبية ووفد عليها الأطباء للأخذ عن هؤلاء العلماء .

ومن أكثر ما يستلفت النظر أن القيروان – كمركز من مراكز الحضارة العربية الإسلامية – ولدت فى الفسطاط ، وأعاظم فقهاء إفريقية (تونس) – مثل أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون – درسوا الفقه على شيوخ الفسطاط ، وخاصة عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز ، فقامت مدرسة القيروان على أصول مصرية ، والقيروان هى أم مدائن المغرب الإسلامى (حسين مؤنس : مصر ورسالتها ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣ ، ط٤ ، ص ٤٤) .

وتشاء الظروف أن تكون الغزوة الهلالية – وهى التى وضعت الأساس المكين لعروبة الجزائر – صادرة من مصر ، فمن مصر خرج بنو رياح والمعقل والزواودة ، وانتشروا بعد ذلك فى نواحى تونس والمغرب الأوسط ، أى الجزائر ، فمدوا بذلك خيوطا بشرية وحضارية زادت البلدين قربا (المرجع السابق ، ص ٤٧) .

وكانت كتب مصر تتسرب إلى الجزائر بكل طريق ، ومن أغرب ما تكشف عنه البحث أن كل كتابات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده تسربت إلى الجزائر وقرئت فى حينها ، وعلى هذه الكتب قامت فى الجزائر حركة الإصلاح التى قادها عبد الحميد بن باديس ، ومما يجهله كثيرون أن محمد عبده زار الجزائر من منفاه فى باريس واجتمع بعلمائها وأخذوا عنه ، فكانت زيارته القصيرة للجزائر من أكبر بواعث النهضة الفكرية الجزائرية ٠(المرجع السابق ، ص ٤٨) ٠

ولا تعنى هذه الوقائع أن مصر لم تقم بهذا الدور إلا فى عصور الإسلام ، ولأنها وقعت فى طريق الحج ، ذلك أن المسيحية ، ثم الإسلام انتشرا فى السودان الشمالى عن طريق مصر ، فقد دخلت المسيحية بلاد النوبة تنفيذا لسياسة الكنيسة المصرية ، ولقد جاهد أحبار هذه الكنيسة جهادا طويلا حتى نشروا المسيحية فى ممالك السودان الثلاث فى العصور الوسطى ، وهى – بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب – النوبة ثم مقُرة ثم علوة ٠ وقد كتب الرحالة المصرى كوسماس المعروف بالبحار الهندى بين سنتى ٥٣٧ و ٥٤٧ الميلاديتين يقول إن الكنائس المسيحية منتشرة بين النوبيين وكذلك الأساقفة والرهبان والشهداء ، ولم يكن فى المسيحية إذ ذاك مواضع حج يرحل إليها الناس ، وإنما الحقيقة هى أن المصريين هم الذين أوغلوا فى السودان ونشروا المسيحية فيه (المرجع السابق ، ص ٥٣) ٠

ومن المعروف أن مصر استطاعت أن تمد مظلتها السياسية شرقا ، فأدخلت الحجاز والشام فترات طويلة فى فلكها ، وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فحسب ، بل كانت ثقافية أضا ، لأن مصر كانت قد تحولت إلى قاعدة الثقافة العربية والعلم الإسلامى ، فكانت تنشر علمها فى كل ناحية وصلت إليها ، وهى قد أزالت الحدود السياسية بينها وبين الشام والحجاز واليمن ، فأصبح رجال العلم من أهل تلك البلاد يفدون إلى مصر ليتعلموا أو

لـــيعلموا ، وكلما تقدم الزمن وتزايدت الأخطار على البلاد المشرقية : العراق والشـــام وجزيـــرة العـــرب تحولت مصر إلى ملجأ للعلم الإسلامى كله ، وفر أصحاب الكتب بكتبهم إلى بلادنا (المرجع السابق ، ص ١٢٥).

فى العصر الحديث :

وأتاحت سبل الاتصال الحديثة لكثير من طلاب العلم من البلدان العربية أن يقصدوا مصر ، حيث يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات :

أ- الذين يدرسون على نفقتهم الخاصة .

ب-الذين يدرسون على نفقة حكوماتهم .

ت-الذين يدرسون على نفقة الحكومة المصرية

فـــإذا عـــرفنا أن الكثـــرة الغالبة من الدول العربية حتى منتصف القرن العشـــرين كانـــت فقيرة ، بينما كانت مصر ، لا نقول ثرية ، ولكنها على أية حال كانت أيسر حالا ، لتيقنا أن الفئة التى غلبت أكثر من هذه الفئات الثلاث ، هى تلك التى كان أفرادها يدرسون على نفقة الحكومة المصرية .

وفـــى الإحصـــاء الـــذى أورده ساطع الحصرى عن سنة ١٩٤٨ (حولية الـــثقافة العـــربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، م١ ، ١٩٤٩ ، ص ٣٩) يجمل أعداد هذه الفئات الثلاث ، لكن يصنفهم وفقا لجنسياتهم كما يلى :

أردنيون -----	١١٩	سعوديون ---------	٣٥٠
سوريون ----	٣١٤	عراقيون ---------	٣٢٩
فلسطينيون -	٦٣١	لبنانيون ---------	٩٦
يمانيون ----	٤٧	مغاربة ---------	٢٢٧
حضارمة ---	٢٩	كويتيون ---------	٦٤
بحرانيون ---	١	عدنيون --------	٢٧

أى بجملة مقدارها ٢٢٣٤ طالبا .

ولـــم تنافس مصر فى هذا الصدد إلا لبنان ، حيث قصده فى الفترة نفسها ٢٠٥٩ طالبا ، بينما قصد العراق ١٢٦ ، وسوريا ٢٦٤ طالبا ٠

وبلـــغ عدد المعلمين والأساتذة المصريين الموفدين إلى البلدان العربية فى العام ١٩٥٢/١٩٥١ ما مجموعه ٣٣٢ فردا ، علما بأن الكثرة الغالبة من هؤلاء كانـــت الحكـــومة المصرية هى التى تدفع مرتباتهم ، وقد توزعوا على البلدان العـــربية وفقـــا لما يلى (ساطع الحصرى ، حولية الثقافة العربية ، م٣ ، ص ٣٧١) :

السعودية -------	٩٩	لحج ---------	٥
العراق --------	٥٢	عدن ---------	١
ليبيا ---------	٤٨	غزة ---------	٤
سوريا --------	٤١	لبنان --------	١٥
البحرين -------	٩		

أما اختصاصات هؤلاء الموفدين ، فكانت كما يلى :

تعليم المواد الاجتماعية ----	٦٧	تعليم التجارة -----	١١
تعليم اللغة العربية ------	٤٧	تعليم التربية البدنية --	١٠
تعليم العلوم والرياضيات --	٣٧	تعليم الرسم ------	٩
تعليم الزراعة ------ -	٢٨	تعليم تدبير المنزل --	٨
تعليم الصناعة -----	٢٧	الإدارة والتفتيش ----	٦
تعليم اللغة الإنجليزية ----	٢٤	اللغة الفرنسية ----	٢
التعليم الجامعى -----	٤		

هذا عدا من أوفدهم الأزهر ٠

وفـــى بيانه أمام مجلس الأمة عام ١٩٥٧ ، ذكر كمال الدين حسين وزير التـــربية والتعليم فى ذلك الوقت أن عدد المدرسين المصريين فى البلاد الشقيقة زاد من ٦٩٠ مدرس ومدرسة فى سنة ١٩٥٣ إلى ١٦٧٦ مدرس ومدرسة فى

عـــام ١٩٥٦ ، وتوقـــع أن يزيد العدد فى العام التالى ، أى ١٩٥٨ إلى ٢٥٠٠ مدرس ومدرسة (وزارة التربية والتعليم : التربية والتعليم فى خمس سنوات ، ١٩٥٧) .

وفى فترة تالية ذكر كتاب وزارة التعليم العالى (التعليم العالى فى ١٢ عاما ، القاهـــرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢) أن عدد المدارس المصرية التى أنشئت فى الســـودان بلغ ٢٠ مدرسة ، ما بين ابتدائية وإعدادية ، وثانوية ، وكذلك جامعة شعبية .

أمـــا عدد المعلمين المعارين فقد وصل وفقا للمصدر السابق إلى ٤٨٨٢ مدرسا ومدرسة فى العام ٦٣-١٩٦٤

وذكـــر كمال الدين حسين فى البيان نفسه أن مصر أنشأت مدرسة إعدادية ثانـــوية بمديـــنة الرباط بالمغرب ، وطائفة من المدارس الابتدائية والثانوية فى السودان .

ونظرا لأن قطاع غزة من فلسطين ظل مسئولية مصر منذ النكبة الأولى ١٩٤٨ ، فقـــد أخـــذت مصر على عاتقها أن تقوم بالكامل بمهام تقديم الخدمة التعليمية لأبناء القطاع ، وفقا للنظام نفسه الذى كان يعيشه أبناء المصريين فى مصر . ولما كان التعليم يقدم فى مصر مجانا ، فإنه كان كذلك فى هذه المنطقة العزيزة .

وتشـــير المفكـــرة الإحصائية لوزارة التربية والتعليم المصرية ، عن العام ١٩٦٠/١٩٦١ إلى جملة الحقائق التالية عن التعليم المصرى المقدم لأبناء غزة:

- بلـــغ عدد مدارس تعليم المرحلة الأولى ٧٨ مدرسة ، كان منها خمسون مدرســـة معانة ، و١٩ مدرسة رسمية ، وتسع مدارس فقط غير معانة ، وضـــمت هذه المدارس ٥٢٩٦٠ تلميذا وتلميذة ، غير المعان منهم لم يزد عن ١٧٢٤ تلميذا وتلميذة . أما المدرسون فقد بلغ عددهم ١١٢٤ مدرسا ، كان منهم ٤١ فقط لا تتحمل الحكومة المصرية مرتباتهم .

- أمـــا عدد المدارس الإعدادية فقد بلغ ٤٢ مدرسة ، ٩ مدارس رسمية ، و ٣٢ مدرسة معانة ، وواحدة فقط غير معانة ، وبلغ عدد تلاميذ وتلميذات الإعـــدادى ١٣٥٠٨ ، غيـــر المعانـــين منهم لم يزيدوا عن ١١٠ تلميذا وتلميذة.
- وضـــمت غزة كذلك مدرستين فنيتين واحدة تجارية والأخرى زراعية ، وكلتهما حكوميتان ضمتا ٤٧٠ تلميذا وتلميذة .
- وضمت أيضا مدرسة معلمين عامة بها ٢٥٧ تلميذا ، ومدرستين للمعلمات ، بهما ١٤٧ تلميذة .
- أمـــا التعليم الثانوى فكانت هناك ثماني مدارس حكومية ، ٦ للبنين ضمت ٦٧٦٧ تلمـــيذا ، وثنتان للبنات ضمتا ١٨٢٩ تلميذة، هذا فضلا عن أربع مدارس لم تكن معانة .

وأكـــد كمـــال الدين حسين ، فى بيانه المشار إليه سابقا ، أن عدد الطلبة الفلســـطينيين ، ســـواء المقيمـــين فى مصر أو غزة ، الذين ترعاهم الحكومة المصـــرية ، قـــد زاد عددهم من ٣٥,٠٩٤ طالب وطالبة فى سنة ٥٣/٥٢ إلى ٦١٧٦٦ فـــى عام ١٩٥٦/٥٥ ، وبلغت جملة المنصرف على مدارس اللاجئين بقطـــاع غـــزة فـــى السنة ١٩٥٦/٥٥ مبلغ ٥٦٥,٠٢٤ ، وهو مبلغ غير قليل بمقاييس هذا الزمان .

وكانت مصر تقدم منحا دراسية لطلاب التعليم من غير المصريين ، حيث كانـــت هذه المنح ٣٣٢ منحة عام ١٩٥٢ ، زاد عددها ليبلغ ٣٧٩٢ منحة فى نهاية العام ٦٣-١٩٦٤ (التعليم العالى فى ١٢ عاما ، ص ١٣٢) .

وتذكـــر وثائق وزارة التعليم العالى أن الوزارة تلقت فى العام ٦٣-١٩٦٤ مـــا يقـــرب مـــن عشرة آلاف طلب للالتحاق بمعاهد التعليم المصرية من غير المصريين ، أمكن إلحاق ٦٢٦٦ منهم فى مختلف المدارس والمعاهد والكليات ،

كـــان منهم ٣٤٨٤ من الوطن العربى فى كليات الجامعات المصرية ، و ٢٠٨ فى المعاهد العليا ، و ٢١٠٠ فى مدارس التعليم العام والفنى ٠

وقـد وصـــل عـــدد الوافدين من قدامى وجدد الذين التحقوا بمعاهد مصر ومدارســـها وكلـــياتها فـــى العام الدراسى ٦٣-١٩٦٤ إلى ٢٤٤٩٨ طالب فى مختلف مراحل التعليم ، ما عدا الأزهر ، (المرجع السابق ، ص ١٥٠) ، كان مـــنهم ١٦٥٢٧ مـــن الوطن العربى ، منهم ٣٥٠ بالدراسات العليا ، و ٩٨١٥ بالجامعات ، و ١١٦٢ بالمعاهد العليا ، و ٥٢٠٠ بالتعليم العام والفنى ٠

وأنشـــأت وزارة التعليم العالى ناديا للطلاب الوافدين ، كان يقوم بالعديد من الأنشـــطة الثقافـــية والترفيهية لهم ، ولقد أتيحت لكاتب هذه السطور أن يكون مستشـــارا ثقافيا لنادى الطلبة الوافدين بمنشية البكرى فى أوائل السبعينيات من القرن الماضى ٠

وحظـــيت كلـــية غوردون بالسودان بنخبة ممتازة من الأساتذة المصريين الـــذين جمعوا بين العلم والوطنية ، فشاركوا فى تعليم السودانيين وإذكاء الروح الـــوثابة المتطلعة إلى العلم والحرية كانوا سندا لحركة الوعى الوطنى التى كان الطلـــبة الســـودانيون فى كلية غوردون من طلائعها بما نالوا من معرفة فتحت أمـــامهم بـــاب الأمل فى التقدم واللحاق بركب الأمم المتحضرة ٠ ولعل هؤلاء الأساتذة لم يحاضروا أولئك الطلبة فى علم السياسة ولم يلقوا عليهم دروسا فى الوطنـــية أو القومـــية ، ولم يحدثوهم عن مسألة تقرير المصير مباشرة فى تلك الفتـــرة المبكرة من الزمن ، ولكنهم دون شك أذكوا روحا شابة وبعثوا عزيمة وزادوا نـــار الثورة ضد الاستعمار ، وكان هؤلاء الأساتذة يصدرون عن شئ يجدونـــه فـــى مصـــر منذ العقد الأول من القرن العشرين ، وكان عدد هؤلاء الأساتذة كبيرا فى الكلية فقد بلغ خمسين مدرسا أو يزيد ، وكان أول ناظر لكلية غـــوردون الأســـتاذ أحمد هدايت (محمد سليمان : دور الأزهر فى السودان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ١١٥) ٠

دور الأزهر :

وإذا كـــان الفاطميون قد بنوا الأزهر ليكون قاعدة علمية للشيعة ، إلا أنه بـــدءا مـــن العهد الأيوبى ، تحول إلى أن يكون معهدا للتعليم الإسلامى يقصده طـــلاب مـــن مختلف أنحاء العالم ، وخاصة من البلدان العربية بفضل سهولة الـــتعلم باللغة العربية ، وأصبح الأزهر معهدا عالميا وجامعة مصرية المكان ، إسلامية عربية المحتوى والطلاب فى الغالب والأعم .

وكـــان من آثار عموم الأزهر قديما حاراته وأروقته ، والحارة فى الأزهر يعبـــر بهـــا عن الحجرات التى يأوى إليها طلابه المغتربون ، والرواق ما بين الأعمـــدة من الفضاء الذى يدرس فيه العلماء لطلابهم ، أو يقيمون فيه ،ومعهم خزائنهم ودواليبهم ، وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية بيان لستة وعشرين رواقا ، وقد دخلت ضمنها الحارات كما يتبين من أسمائها :

١-رواق الصعايدة ٢- والحرمين : مكة والمدينة

٣- والدكارنة ، وهو خاص بأهل تكرور وسنار ودارفور ووادى وغيرها

٤- والشوام ٥- والجاوة ، وهو خاص بالجاوة وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية

٦- والسليمانية ، وهو لأهل أفغانستان وخراسان

٧- والمغاربة ، وهو خاص بأهل شمال إفريقية وهو رواق كبير هام .

٨- والسنارية ، أنشأه محمد على ٩- والأتراك

١٠- والبرنية لأهل برنو وما جاورها ١١- والجبوتية لأهل شاطئ الصومال

١٣- والأكراد ١٤- والهنود

١٥- والبغدادية من العراق

...إلى غير هذا وذاك من أروقة وحارات .

ومـــن المعروف أن التعليم بالأزهر لم يكن فقط مجانيا ، بل كانت الكتب توزع مجانا ، فضلا عما اصطلح على تسميته " بالجراية " ، وهى تعنى الخبز بصفة أساسية .

ووفد على الأزهر من البلدان العربية ، فى الفترة من عام ٥٢ إلى ١٩٥٧ الأعـداد التالـية على التوالى : ٢٣٣١- ٢٦٣١- ٣٨٢٥- ٣٩٧٤- ٣٠١٦- ٢٧٧١طالبا .

أمـــا فى الفترة من عام ١٩٥٨/٥٧ حتى ١٩٦٤/٦٣ فقد تطورت الأعداد إلـــى مـــا يلـــى على التوالى : ٢٠٣٩- ٢٠٨٢- ٢٢١١- ٢١٩٣- ١٨٩٨- ١٩٠٤- ٢٢٩٠ (وزارة الأوقاف : الأزهر ، تاريخه وتطوره ، ١٩٦٤ ، ص ٥٧٠) .

ومـــن حـــيث الإنفـــاق المالى ، فقد بلغ ما تم إنفاقه على الطلاب الوافدين بالأزهر عام ١٩٦٤/٦٣ مبلغ ٣٧٥٠٠ جنيها ، وكان هذا المبلغ ١٥٠٠٠ عام ٥٢ /١٩٥٣ (المرجع السابق ، ص ٥٦٦).

وفضـــلا عـــن ذلك كان الأزهر يرسل مبعوثين من خريجيه إلى مختلف الـــبلدان من أجل نشر المعرفة الإسلامية ، حيث بلغ عدد من أرسلهم عام ٦٣/ ١٩٦٤ ٣٨٨ مـــبعوثا ، وكـــان عددهم عام ١٩٦١/٦٠ هو ٢٠٥ ، علما بأن هـــؤلاء لم يقتصروا فقط على البلدان العربية ، بل كذلك بلدانا أخرى (المرجع السابق ، ص ٦٠٥) .

وبحكم العروة الوثقى بين مصر والسودان ربما يكون من المفيد أن نسوق هـــذا الـــبلد الشقيق مثالا لما كان للتعليم المصرى على وجه العموم ، وللأزهر على وجه الخصوص من آثار تربوية بارزة .

فقـــد كان من مسئولية الشيخ محمد عبده عندما كان مفتيا لمصر فى عهد الخديوى عباس الثانى أن يختار قاضى قضاة للسودان ، فكان يختار المبرزين من علماء الأزهر ، ويكفى أن نشير إلى الشيخ مصطفى المراغى ، الذى أصبح

فـيما بعـد شيخا للأزهر فكان متشربا بأفكار محمد عبده الإصلاحية مما جعله يحـرص – بقـدر الإمكان – أن تعرف بعض هذه الأفكار طريقها إلى التعليم السودانى ٠

وكـان للشـيخ مصطفى المراغى دور كبير فى تطور المعهد العلمى فى أم درمان ، حيث كان وثيق الصلة بالشيخ أبى القاسم مؤسس المعهد الذى استعان به مرارا فى كثير مما يهم المعهد فى عهده الأول (دور الأزهر فى السودان ، ص ١١٣) ٠

وفـى عام ١٩٠١ ، أى بعد سنتين من اتفاقية الحكم الثنائى بين بريطانيا ومصـر عـين الحاكم البريطانى لجنة من بعض علماء السودان تكون مهمتهم استشارية له ٠ ورأت اللجنة أن ترسل بعوثا سودانية إلى الأزهر لزيادة حصيلة الطلاب من العلم ليعودوا ويتلوا مهنة التدريس فيها ، لكن الحاكم البريطانى لم يكـن راضيا عن هذا الرأى اعتقادا منه بأن ذهاب السودانيين للأزهر وتلقيهم الدراسـة هناك قد يجعلهم يتشربون بآراء وأفكار معادية للإدارة البريطانية فى السودان ، ولكنه مع ذلك كان يفضل إرسالهم إلى الأزهر على أن يؤتى بعلماء مصريين من الأزهر للتدريس فى السودان ٠ وأخيرا اتفق على حل وسط وهو إعـادة تنظيم وتطوير التعليم الدينى بجامع أم درمان الكبير (المرجع السابق ، ص ١٢٧) ٠

ولم يتح للأزهر أن يقوم بدوره إزاء المعهد بفعل المعارضة الإنجليزية إلا أواخـر عـام ١٩٤٧ حـيث جاءت بعثة مصرية مكونة من خمسة من أوائل الشـهادات الأزهرية وخيرة مدرسيه للعمل بالتدريس فى المعهد العلمى ، وكان علماء الأزهر الذين وفدوا بعد ذلك على التوالى أهم العوامل فى نهضة المعهد الحديـثة وتطويره إلى جامعة أم درمان الإسلامية ، أسهموا فى تعديل المناهج وطـرق الـتدريس ونظـام الامتحانات وأدخلوا الأعمال التحريرية والتطبيقية

وأنعشوا المحاضرة والخطابة والإنشاء وأفاد المعهد منهم خيرا كثيرا (المرجع السابق ، ص ١٣١) .

وعلى الرغم من محاولة الاحتلال البريطانى المباعدة بين الأزهر والتعليم الدينى فى السودان الفترة المشار إليها إلا أن د. كامل الباقر صاحب اليد الطولى فى نشأة جامعة أم درمان الإسلامية يؤكد أنه عندما كان طالبا يدرس فى المعهد العلمى بأم درمان وجد أن المعهد كان يسير وفقا لفلسفة الأزهر وخططه ومناهجه ، وكانت كل الكتب التى يدرسونها على وجه التقريب هى تلك التى يدرسها الطلاب فى الأزهر ، وكانوا يقرأون مجلة الأزهر لكتاب شباب صاروا أئمة فيما بعد مثل الدكاترة محمد البهى ، وعبد الحليم محمود ومحمود حب الله وغيرهم " ...وهكذا نستطيع أن نقول أننا درسنا فى الأزهر على بعد . لم نجلس إلى حلقاته ولم نلتحق بكلياته . كنا بعيدين عنه فى المكان وقريبين منه بقلوبنا وفكرنا وعواطفنا . كان أبناء السودان يهاجرون إلى قاهرة المعز طلبا للعلم على الرغم من الحواجز التى وضعها الاستعمار فى طريقهم . كانوا يتسللون من خلال الأسوار إلى حدود مصر وكأنهم لاجئون سياسيون تطاردهم أعين الرقباء ..." (كلمة كامل الباقر فى الكتاب التذكارى بمناسبة العيد الألفى للأزهر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠) .

ومع وجود مساجد كبرى فى بعض البلدان العربية تقدم التعليم الدينى ، إلا أن الأزهر كانت له آثاره على كثير منها ، ونسوق مثالا لذلك جامع الزيتونة بتونس ، فقد زاد فى قوة انجذاب الزيتونيين إلى الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى أن حفلت مصر بمقدم أساتذة فى البلاد الشرقية بلغت سمعتهم عنان السماء ، يعتبر فى مقدمتهم شهرة وعلو مقام الحافظ محمد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، فقد تسابق الناس للأخذ عنه ، وتزاحموا على مجالس إملائه حتى كان القاصدون إلى الحج ، ولو من غير خاصة الطلبة يغتنمون إقامتهم بمصر عابرين لحضور مجالسه الجامعة ويكتب لهم الشهادة بالسماع ،

والإجـــازة ، وبذلك شرعت الرواية عنه ، وانتشر خطه فى الإجازات والإثبات وكتب السنة المقروءة عليه ، ومن أخص تلاميذه من شيوخ الزيتونة الشيخ عمر ابن المؤدب ، والشيخ محمد بن حمودة الصفار ، وأبناء الشيخ الغريانى ، بل إن عامـــة طلبة الزيتونة فى ذلك العصر يعتبرون طلبة له ، لأنه كتب فى إجازته لأبـــناء الشـــيخ الغريانـــى : كذا أجزت لطلبة العلم الملازمين فى حلقة دروس والـــدهم وســـائر أحبابهم وأصحابهم ممن فيه أهلية التحمل لهذا العلم " (محمد الفاضـــل بن عاشور : امتزاج الزيتونة بالأزهر ، فى : التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ، من بحوث مؤتمرا مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٤ ،ص ١٠٣) .

وكـــان من أجل الراحلين من الزيتونة إلى الأزهر فى القرن الثالث عشر : الشيخ مصطفى بن خليل ، فقد كان أكمل تحصيله بالزيتونة وسمى عدلا بتونس ، ثم سافر إلى مصر ، فقرأ بالأزهر على الشيخ إبراهيم السقاء ، والشيخ عليش ، والشـــيخ الإنبابـــى ، وأجازه الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الطهطاوى ، ويوجد نـــص إجازتـــه له بخطه فى دار الكتب المصرية ، ورجع الشيخ مصطفى إلى تـــونس فـــى أواخر القرن الثالث عشر ، وسمى مدرسا من الطبقة العليا بجامع الزيتونة ، وعلت منزلته ، وأخذ عنه وتخرج به كثير من علماء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (المرجع السابق ، ص ١٠٤) .

ويطـــول بـــنا المقام لو حاولنا استقصاء ما كان للأزهر من دور فى نشر المعرفة الدينية واللغوية العربية بين أبناء الدول العربية ، سواء بإرساله البعوث الدعـــوية والتعليمية إليهم ، أو فى فتح أبوابه لمن يجئ إلى مصر طلبا للمعرفة الدينية التى كان علماء الأزهر يفيضون بها على من يقصدهم من خارج مصر ، كما هو الأمر بالنسبة للمصريين ، بغير تمييز عرقى أو مالى أو اجتماعى ، وإنما هى أمثلة ، على قلتها ، إلا أنها تؤكد حقيقة دور الأزهر بغير شك .

بين الاستمرار والإنقطاع :

آفة العمل التعليمى فى البلدان العربية ، هى عدم استقلاليته ووقوعه غالبا فى قبضة النظام السياسى ، ومن هنا يجئ تعرضه للعواصف السياسية من حين لآخر ، فما أن تتوتر العلاقة بين مصر وأحد البلدان لسبب أو آخر ، حتى يكون العمل التعليمى من أوائل من يدفعون الثمن ، مع أن المفروض أن يستمر قائما ، ولـــو تنبه القوم إلى هذا لأسس العمل التعليمى للكثير من قوى الربط وتمتين العلاقـــات ،ويصـــدق هـــذا بصـــفة خاصة فى الفترة الناصرية ، حيث كانت العلاقـــات المصرية العربية عرضة لكثير من الاحتقان والتوتر والانقطاع بين مصر وبين هذا البلد أو ذاك ، فإذا كان هناك معلمون مصريون يعملون خارج مصر ، تأمرهم الحكومة المصرية بالعودة ، أو تسحب من كانوا موجودين فيها ، وقد تكون مثل هذه الخطوة من جانب البلد العربى نفسه ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

وفضـــلا عـــن ذلـــك فإن أقوى ضربة أصيب بها الدور المصرى هو ما أعقـــب هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فقد علت أصوات متعددة داخل مصر تقول بأننا بذلـــنا الكثيـــر للعـــرب دون نتـــيجة ، وأنـــه آن الأوان لإمساك اليد عن هذه المساعدات الضخمة .

وكان من مظاهر هذا ، استثناءات كان يتمتع بها الطلاب العرب فى مصر ، فى القبول بمعاهد التعليم المصرية ، بدأ إلغاؤها .

وبدأت أصوات تطالب بأن يدفع الطلاب العرب مصروفات أجر تعليمهم ، وتدرج هذا حتى أصبحت هذه المصروفات باهظة فى السنوات الأخيرة .

صحيح ان ما أوردنا أمثلة له يؤكد أن العمل المصرى العروبى فى التعليم قد انطلق منذ قرون ، كما أكدنا ، من موقف إيمان وعقيدة ، إلا أننا فى الوقت نفســـه لا نستطيع أن نغض الطرف عما تركته الأعاصير السياسية من ظلال ، وما أدت إليه ، لا نقول من انقطاع كما طالب البعض ، وإنما من تباطوء .

وعلى سبيل المثال ، فإن السنوات ما بين ١٩٥٦و ١٩٦١ كانت تمثل ذروة التوهج العروبى فى مصر ، حتى إذا حدث الانفصال مع سوريا ، بدأت مشاعر بالألم والأسى تعرف طريقها إلى البعض منا فى مصر ، وعزز من هذا التوجه السياســـى الذى تلى حركة الانفصال من حيث التركيز على التوجه الاشتراكى ومشاركة وتدفق الكتابات الماركسية طوال فترة الستينيات مما كان له دوره فى خفوت الصوت العروبى بعض الشئ ٠

وزاد الطين بلة ما حدث فى أعقاب توقيع اتفاقية كامب ديفيد ٠

ومن هنا فإن المسار السياسى كان له دوره السلبى على الدور التعليمى ، ما دامت مصر قد بدأت تفقد ثقلها السياسى فى توجيه الأحداث ٠

ولابـــد أن نضيف إلى هذا ما لمسه كثير من المصريين العاملين فى الدول الخليجـــية من حيث عدم السماح لأبنائهم بمواصلة التعليم الجامعى ، مما روج لمطالـــبات بالمعاملـــة بالمثل ، أو على الأقل تحمل الطالب العربى مصروفات تعلمـــه ، وهـــذا بدوره دفع البعض من الطلاب العرب أن يتوجهوا إلى بلدان غربية ، خاصة وأن الثقافة العربية مع الأسف تزداد احتراما للتعليم إذا كان فى معهد غربى أكثر منه لو كان فى معهد عربى !

إن مـــا نأملـــه حقـــا أن نثق بأن مصر مهما دفعت من تكاليف فى العطاء التعليمى ، فإنها تجنى لنفسها ولمستقبل الأمة ما هو أكثر مما دفعته ، ولا نقصد هنا مجرد الدفع المالى ولكنا نقصد " البذل " و " العطاء " ، مما يوجب ألا يهتز هذا الشأن بالتقلبات السياسية ٠